21- قضايا الشعر المعاصر،(م،س) ، ص:**263**

22- محمد بنيس، الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، الجزء الثالث، دار توبقال، الدار البيضاء،ط**1**،**1987** ، ص:**148**

23- نفسه، ص:**155**

24-سمر الديوب، الثنائيات الضدية، دراسة في الشعر العربي القديم، منشورات الهيئة السورية للكتاب،وزارة الثقافة، دمشق،**2009**، ص:**17**

25-محمد عبد المطلب، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، **1995**، ص:**144**

26-إياد الحصني، معاني الأحرف العربية، ج**1**، **ص41**. دون ذكر للناشر ولا التاريخ.

27-شربل داغر، الشعرية العربية الحديثة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط**1**، **1988**، ص:**24**

28-محمد بنيس، الشعر العربي الحديث، ج**3**، (م، س)، ص:**120**

29-العيد يمنى، في معرفة النص، دار الآداب، ط**4**، بيروت، لبنان، **1999**، ص:**105**وما بعدها.

30-في البنية الإيقاعية للقصيدة العربية، (مرجع سابق)، ص:**210**

31- نفسه، ص: **214**

معالم الفكر الإصلاحي والتربوي عند محمد البشير الإبراهيمي
حكيم العلماء وعالم الحكماء.

د: بلقاسم ذوادي.
كلية الآداب
جامعة برج بوعريريج

لقد صدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال:
"اذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه " لكن الذي يحز في القلب ، أن الذي نفقده من العلماء لا نجد من يملأ مكانه ويسد فراغه من بعده، إلا ما شاء الله".

الملخص

نتوقف في مقالنا هذا عند معالم الفكر الإصلاحي والتربوي عند محمد البشير الإبراهيمي ممثلة في أساسيات ثابتة تتمحور حول: الإسلام والعروبة كمنطلق، والوحدة والحرية كهدف، والتوعية والتربية كمنهاج، والعمل الجماعي كشرط في تحقيق كل الغايات وهو ما ميز كل هاته الجوانب الإصلاحية والتربوية في دعوة العلامة محمد البشير الإبراهيمي.

كان العلامة محمد البشير الإبراهيمي علامة فارقة من علامات هذا القرن، فقد عاش أحداثه منذ كان طفلا صغيرا؛ حيث بدت عليه مخايل العبقرية والنبوغ، فشارك في صنع كثير منها عندما أبى أن يكون مجرد فرد عادي، فكوّن نفسه تكوينا فائقا، وبنى حياته على مُثل فاضلة ومواقف كبيرة، وحفر بذلك لاسمه موقعا مميزا في سجل هذا القرن.

وأعظم ما تميز به البشير الإبراهيمي أنه كان مع الناس يعيش بهم ولهم، يتحسس حاجاتهم، ويتلمس مواضع الجرح فيهم، لم يكن يتعالى على الناس ولا

يخاطبهم من علٍ، وبذلك دخل إلى قلوبهم دون استئذان، فأحبوه وتعلقوا به كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، مثقفين وعامة، متعلمين وعاميين.

لذلك تسعى هذه الدراسة إلى إبراز بعض الجوانب الإصلاحية والطرق التربوية في دعوة الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي الذي يعد ـ بحق ـ أحد أئمة الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، لأن المتأمل في سيرته، وفي تراثه الأدبي والفكري: يتبيّن له بوضوح وجلاء: خطه الإصلاحي، ومنهجه التربوي. ونستطيع أن نجمل معالم الإصلاح والتربية عند البشير الإبراهيمي في هذه النقاط أو المحاور:

1– الإسلام والعروبة: أساساً ومنطلقاً.

2– الوحدة والحرية (أو التوحيد والتحرير): محوراً وهدفاً.

3– التربية والتوعية: منهاجاً وطريقاً.

4–العمل الجماعي: ضرورة وشرطاً.

فهي ـ إذن ـ دعوة تحركها القيم الإيمانية وتسيرها المبادئ الإصلاحية وتأطرها الطرق التربوية.

المحور الأول: الإسلام والعروبة: أساساً ومنطلقاً.

كان الإسلام هو المرجعية الأولى، بل المرجعية الوحيدة للإبراهيمي وجماعته، وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا دهشة منه، بل الغريب أن تكون له مرجعية أخرى غير الإسلام؛ فمنه البدء وإليه المنتهى.

حفظ القرآن منذ صباه، وقرأ الحديث، ودرس التوحيد والفقه والأصول، وسائر علوم الإسلام، ونبغ فيها، وأمسى معلما لها، وداعيا إليها، فلا يتصور منه أن يتخذ مرجعا غير الإسلام. ولكن ما مفهوم الإسلام الذي يؤمن به الشيخ ويدعو إليه، ويدفع عنه شبهات المرتابين وأكاذيب المفترين ؟. إنه ليس الإسلام الذي شابته شوائب الأزمنة والأمكنة، والأعراف المتباينة، فك ـ درت صفاءه، وغبشت ضياءه.

إنه ليس للإسلام مذهب من المذاهب، ولا طائفة من الطوائف، ولا قطر من الأقطار، ولا عصر من الأعصار. إنه (الإسلام الأول) إسلام القرآن الكريم، والسنة الصحيحة. إسلام الرسول الكريم وصحابته الميامين، وتلاميذهم الأخيار من التابعين؛ ولقد حرص الإبراهيمي على أن يبين باستمرار رسوخ الإسلام في

الجزائر رسوخ الجبال الشم، وأنه أصل أصول حياتها، وأنه منها بمثابة الروح من الجسد. إذا انفصل أحدهما عن الأخر فمعناه الموت.

يقول في مقالة له: «إن الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه (القرآن) إلى منزلته في الإمامة فكان له منه الحمى الذي لا يطرق، والسياج الذي لا يخرق»][1]

الإسلام الذي يدعو إليه الإبراهيمي:

لطالما شرح الإمام الإبراهيمي هذا الإسلام العظيم بقلمه الفياض، وعباراته المشرقة، فجلى أسراره، وجسد آثاره، وكشف اللثام عن عقيدته الحنيفية، وعن شريعته السمحة، وعن قيّمه الملائمة للفطرة، المهذبة للغريزة، التي تسمو بالإنسان إلى مراتب الإيمان والإحسان.

اقرأ له هذه القطعة، التي يتحدث فيها عن الإسلام دين التحرير، فيقول [2]: «إن الإسلام هو " دين التحرير العام "، فنرسل هذا الوصف إرسالاً بدون تحفظ ولا استثناء، لأنه الحق الذي قامت شواهده، وتواترت بيناته، ومن شواهده وشهوده: تلك الأجيال التي صحبت محمداً وآمنت به، واتبعت النور الذي أنزل معه، ثم الذين صحبوهم، ثم الذين اتبعوهم بإحسان».

الإسلام دين التحرير العام:

حرر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفوس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتنافرات التي بني عليها هذا العالم، كالصلاح والفساد، والخير والشر، والنفع والضر، ولذلك جعل مناطا للتكاليف الدينية والدنيوية، وقد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا في الدين أو الكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل إلى أحط من الحيوانية، ففي القرآن العظيم ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ [الأعراف: **179**].

أعلن الإسلام من أول يوم، حربا شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشد ما كانت سلطانا على النفوس، وتغلغلا فيها، وإفسادا لفطرة الخير وإطفاء لنورها، حتى اجتثها ومحا آثارها من النفوس والآفاق، وعمر مكانها بالتوحيد، أتدرون السر في تلك الحملات على الوثنية ؟ هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحا معافى، ويؤدي الوظيفة التي خلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد على هدم طاغية ثقيف. فحد الحدود بين المرأة والرجل، وبين المحكوم والحاكم، وبين الفقير والغني، وبين العبيد والسادة، وبين العمال وأصحاب المال، وهذه الأنواع من التحرير تناولتها النصوص القطعية من القرآن والأحاديث، واكتنفتها في طلب النصوص مؤثرات من الترغيب والترهيب تزيدها قوة ورسوخا في النفس.

ربط الإسلام بالعروبة:

إنّ الإسلام الذي يدعو إليه الإبراهيمي مختلط بالعروبة اختلاط اللحم بالدم وكأنما عنده مركب كيماوي امتزج فيه العنصران كما يمتزج الأكسوجين مع الهيدروجين في تشكيل (الماء). والعروبة التي يدعو إليها ليست عرقية ولا عنصرية، بل هي عروبة لغة وثقافة، وجوهرها اللسان العربي وهو الذي نزل به القرآن الكريم . ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[الشعراء: **193، 194، 195**]. كما أن القرآن عربي، ومحمد ﷺ رسول الإسلام عربي، وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزله معه عرب، حتى من لم يكن منهم عربي الأرومة والعرق، فقد تعرب باللسان حين تكلم العربية، وقد روي حديث عن النبي ﷺ يقول: " **إنما العروبة اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي** "][3]. وأرض العرب هي أرض الإسلام ومهده ومنبته، فيها نشأت الدعوة، وإليها كانت الهجرة، وبها كانت الوفاة، وهي التي ضمت رفاته عليه السلام، والمساجد الكبرى المقدسة في الإسلام والتي لا تشد الرحال إلا إليها في أرض العرب: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

ويعتبر الشيخ الإبراهيمي أهم مكونات (الذات الجزائرية) إنما هي (الإسلام والعروبة) الإسلام الذي لا يرفض العروبة، مثل إسلام الغلاة، الذين زعموا أن

الإسلام يرفض كل القوميات، لا فرق بين قومية عربية، وقومية هندية أو طورانية أو فرعونية أو غيرها. ونسوا خصوصية العروبة وما لها من صلة حميمة بالإسلام، أشرنا إليها.

والعروبة التي لا تنفصل عن الإسلام ولا تعتبر نفسها نداً له أو خصماً. مثل عروبة (القوميين) المتعصبين الذين ينصبون حرباً بين العروبة والإسلام، والذين اعتبر بعضهم القومية العربية (ديناً جديداً) أو (نبوة) جديدة والذين قال شاعرهم:

بلادُك قدمها على كل ملةٍ ومن أجلها أفطر، ومن أجلها صم!

سلامٌ على كفر يوحد بيننا وأهـــلا وسهـــلا بعـــده بجهنـــم

وطالما أبدأ الشيخ وأعاد، وأفاض وأجاد، حول هذه القضية، ليقنع بها العقول، ويحرك بها العواطف، ويحفز بها العزائم.« وكان لهذه الحركة الإصلاحية، غايات روحية وثقافية ووطنية وقومية من خلال تأصيل الهوية العربية للشعب الجزائري والتأكيد على انتماءاته ووصل لحمته بمختلف الأقطار العربية الشقيقة، باعتبار أن اللغة العربية هي وعاء العقيدة الإسلامية، والفكر الإسلامي». [4]

المحور الثاني: التحرير والتوحيد، محورا وهدفا.

كان لا بد من غرس العزة في الأنفس، واليقين في السرائر، والأمل في القلوب، والبغض للذل والخنوع، والشعور بالسّيادة، والتوق إلى الحرية، وهذا ما فذ بـ(جمعية العلماء) ورجالها منذ تأسيسها، وفي مقدمتهم رئيس الجمعية الأول: الإمام عبد الحميد بن باديس، ونائبه الإمام محمد السيد الإبراهيمي.

كان هدف الشيخ الإبراهيمي من عمله الإصلاحي الكبير الذي بدأه مع ابن باديس ورفقائه في الدرب، هو إعداد الشعب الجزائري المسلم ليوم لا ريب فيه، هو يوم التحرر من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني المتغطرس، الذي طال ليله، وطّم سيله. ولن يحرر الوطن الجزائري من نير الاستعمار إلا الشعب الجزائري، ولن يتم ذلك إلا إذا حررنا نفسية الشعب من الخنوع للمستعمر، ومن التبعية لثقافته، ومن اليأس من مقاومته. وحينئذ سيتحول هذا الشعب كله إلى جنود للكفاح، بل إلى أبطال تنشد الجهاد والاستشهاد، حين تُحلّ العقدة، وتتحكم العقيدة، وتتضح الغاية، وتستبين الطريق، وتستحكم العزيمة، ويسود قبل ذلك كله: الإيمان بالله، والثقة بنصره، والإيمان بأن الحق مع الشعب المجاهد، وأن الباطل مع العدو المستعمِر، وأن الحق لا بد أن ينتصر على الباطل. ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء:**18**].

وكان الإبراهيمي – وهو أديب من الطراز الأول، له طابعه المتميز وأسلوبه الخاص – يرسل قلمه شواظا من نار على الاستعمار ووحشيته، وأساليبه في القهر والإذلال، ومحاولة طمس الهُوية، وتغيير معالم الشخصية الجزائرية.« وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل إلى إحدى الحسنيين، إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة» [5]. وكانت (البصائر) تحمل دائما ما يجود به قلم الشيخ، من نفحات على الوطن، ولفحات على الاستعمار.

التحرير الذي ينشده الإبراهيمي:

التحرير الذي ينشده الإمام الإبراهيمي: تحرير عام شامل، يشمل تحرير الإنسان، وتحرير الأرض، تحرير الفرد، وتحرير المجتمع.. تحرير الرجل، وتحرير المرأة.. تحرير العقل، وتحرير البدن. التحرير من الاستعمار الخارجي، والتحرير من الاستعمار الداخلي.. هذا هو التحرير المنشود للإبراهيمي، وإن شئت قلت: إنه التحرير الذي تنشده جمعية العلماء، فما الشيخ في وقفته إلا لسانها المعبِّر، وعقلها المفكِّر، وداعيتها المذكِّر، بدءا بـ:

1. إشاعة كلمة (الحرية) في محيط الشعب:

كانت كلمة (الحرية) من الكلمات المحظورة، التي لا يجوز ذكرها في حديث ولا خطبة، ولا درس ولا محاضرة ولا كتاب. كأنما لا توجد في اللغة أصلا. وكان الاستعمار حريصا على إخفائها وإماتتها، حتى جاء ابن باديس وإخوانه، فأحيوها بعد موتها، ونشروها من قبرها، وأشاعوها بين الناس، وحبّبوها إليهم.

2. التوحيد هو الهدف الثاني:

كانت الحرية – أو التحرير - هي الأمل الأول الذي يسعى إلى تحقيقه الإمام الإبراهيمي، وكانت الوحدة – أو التوحيد– هي الأمل الثاني الذي يرنو إليه أو يصر عليه. وهذه الوحدة تبدأ بوحدة الجزائر أولا، لأنها قوة الشمال الإفريقي أو المغرب العربي، فوحدة الأمة العربية، وانتهاء بوحدة الأمة الإسلامية، وكانت وحدة الجزائر والجزائريين هي شغله الشاغل، فهو يعمل دائبا بعلمه ولسانه، وفكره ووجدانه، وحركته مع إخوانه، لصهر عنصري الشعب الجزائري: عربه وبربره –كما

هو الواقع – في بوتقة واحدة. ويرى أن الإسلام قد عرّب الشعب الجزائري، كما عرّب المغرب العربي كله، وهو يعجب من الذين يريدون أن يجعلوا البربر فرنسيين، وليس بينهم وبين فرنسا نسب ولا آصرة دينية، ولا عرقية، ولا تاريخية، ولا جغرافية – في حين بينهم وبين العروبة أكثر من آصرة!!.

3 . البداية بتوحيد الشعب الجزائري:

كان سعي الشيخ في مجال التجميع والتوحيد: البدء بتوحيد الشعب الجزائري أولا. وهذا بدء طبيعي منطقي كما في الحديث: "**ابدأ بنفسك ثم بمن تعول**"[6].

كان يريد أن يتوحد الشعب الجزائري توحدا حقيقيا، بحيث يكون كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا، أو كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تألم سائر الأعضاء، وهنا لا يسمح بإثارة أي نوع من الخلافات المفرقة بين الشعب الواحد، فلا مجال للقول بانقسام الجزائر إلى عرب وبربر، فقد عرّب الإسلام البربر، كما عرّب المصريين وغيرهم من الشعوب. واجتهد الشيخ الإبراهيمي أن يُجَنّب الشعب الجزائري أسباب الخلاف الديني، من جرّاء الاختلاف في قضايا علم الكلام، أو مذاهب الفقه، أو اتجاهات التصوف، كما حذّر الشيخ من مكايد الاستعمار ودسائسه، ومن همزاته ووساوسه، ومن سياسته المعروفة، التي شعارها (فرق تسد).وحاول الشيخ هو ورفقاء دربه: أن يجمعوا الشعب على الإسلام الصحيح، الإسلام الأول، إسلام القرآن والسنة، وأن يحرروه مما سوى ذلك من مبتدعات العامة، وضلالات الخاصة، أو ما سماه الإمام محمد عبده: شهوات سلاطين، أو نزغات شياطين، وقد حرص الإبراهيمي على توحيد الشعب الجزائري في شعائره الدينية، كما حرص على توحيد مواقفه الوطنية، وقد جاهد وكافح من أجل توحيد الشعب في صيامه وفطره وكتب في ذلك مقالات ضافية، يَرُدّ بها على لجنة الأهلة المعينة من قبل السلطة الفرنسية، ويهيب بالشعب المسلم أن يوّحد صيامه وإفطاره.

4 . ضرورة الاتحاد وضرر الخلاف:

بدأ الشيخ دعوته إلى الاتحاد .كما قلنا . من المنطلق الطبيعي والمنطقي: أن تتحد الجزائر وشعبها أولا في مواجهة الاستعمار الفرنسي بسلطانه وجبروته، فكانت الدعوة إلى توحيد عنصري الوطن: العرب والبربر. ثم كانت الدعوة إلى اتحاد الأحزاب الوطنية التي تعمل لتحرير الجزائر. وكان الشيخ يلح في هذه الدعوة

ويؤكدها ويكررها، ويناضل عنها بقوة يقول في ذلك: (كل مسلم عربي جزائري مخلص يُؤيّدنا في الدعوة إلى هذا الاتحاد. وَيَودُّ منه ما نَوَد، ويَعتقد فيها ما نعتقده، من أنّه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية، والوسيلة الوحيدة لنجاحها؛ ويرى ما نرى من آثار هذا التفرق الشنيع الذي شتّت شمل هذه الأمة الضعيفة، فزادها ضعفا على ضعف، في وقت تطلّعتْ فيه إلى المطالبة بحقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جمع القوى، والتئام الشمل، واتحاد الكلمة[7].

5 - توحيد الشمال الإفريقي:

بعد توحيد الجزائر شعبا ووطنا: توحيد فكرتها، وتوحيد عبادتها، وتوحيد وقفتها، ورصها صفا واحدا في مواجهة المعركة المرتقبة، الآتية في يوم لا ريب فيه: اتجه الشيخ إلى توحيد الشمال الإفريقي – أو المغرب العربي - كله. فإنما هو وطن واحد، وشعب واحد، بعضه من بعض، وأقصاه موصول بأدناه، فهو شعب عربي مسلم، ربطت بينه العروبة والإسلام، كما ربط بينه الهَمّ الواحد، والمصير الواحد، هو محاربة الاستعمار، وتحرير البلاد من نيره وناره، ومن ذله وإساره؛ لذا كان حريصا أن يثبت بنصاعة بيانه، وفصاحة لسانه، وسطوع برهانه: أن الشمال الإفريقي كله عربي، كما أن كله مسلم. وأن الإسلام قد أذاب بين الجميع كل الفروق العرقية، ووحّدهم خلف القرآن الكريم، والرّسول العظيم، كما وحّدهم في الصّلاة خلف إمام واحد، يتلون كتابا واحدا، ويؤدّون حركات واحدة، ويتعرّفون إلى الله بعبادة واحدة، تفتتح بالتكبير، وتنتهي بالتسليم.

تحدّث الشيخ عن وحدة الشّمال الإفريقي بلسان صادق، وبيان دافق، وبرهان ناطق، يقيم الحجّة على الخصم، ويخرس لسانه فلا يتكلم، ويفحمه فلا يجادل، تقرأ للشيخ مقالا في (البصائر) تحت عنوان (عروبة الشمال الإفريقي) يقول فيه: (عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدَرتْ منها الدّماء، والينابيع التي انفجرتْ منها الأخلاق والخصائص، والنّواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد؛ وهي أثبتُ أساسا، وأقدم عهدًا، أصفى عنصرًا من إنكليزية الإنكليز، وألمانية الألمان. قضت العروبة بقوّتها وروحانيتها، وأدبها، وسُمُوّ خصائصها، وامتداد عروقها، في الأكرمين الأُوَل من نبات الصحارى، وبُناة الحضارات فيها – على بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال، وبقايا آرية كانت منتشرة فيه؛ وفعل الزمن الطويل فعلَه حتى نسى الناس ونسي التاريخُ الحديثُ أنَّ هنا جنسا غير عربي؛ وضرب الإسلام بيسره ولطف مداخله،

وملاءمة عقائده للفطر، وعبادته للأرواح، وآدابه للنفوس، وأحكامه للمصالح على كل عرق ينبض بحنين إلى أصل، وعلى كل صوت يهتف بذكرى إلى ماض بعيد؛ وزاد العروبةَ تثبيتا وتمكينا في هذا الشمال هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين، وحافظت على متون اللغة، ودوّنت الآداب والشرائع، وكَتَبت التاريخ، وسجَّلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة.

كل هذه العوامل صيّرت هذا الشمال عربيا قارَّ العروبة على الأسس الثابتة: من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، وآداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي.. وجاء التاريخ – وهو الحكم في مثل هذا – فشهد وأدَّى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب.. وجاء الزمن بثلاثة عشر قرنا، تشهَد سِنوها وأيامها بأنها فرَغتْ من عملها، وتمّ التمام[8].

6 . توحيد العرب:

وبعد وحدة الشمال الإفريقي أو المغرب العربي: الجار ذي القربى، يسعى إلى الجار الجنب، وهم: بقية العرب في المشرق، فيدعو إلى وحدة أمة العرب جمعاء، من محيطها إلى خليجها:

أولا: توحيد أمة الإسلام

وهو حين يدعو إلى وحدة الجزائر، فوحدة المغرب العربي، فوحدة العرب: ينتهي إلى الوحدة الكبرى لأمة الإسلام كلها، من المحيط إلى المحيط، من جاكرتا إلى مراكش.

وطالما كتب الإبراهيمي يستصرخ المسلمين ليجتمع شملهم، ويتحد صفهم، وينعي عليهم تفرقهم، ودينهم يوجب عليهم أن يجتمعوا، وينكر عليهم تقاطعهم ومصلحتهم تفرض عليهم أن يتواصلوا. وقد كتب كلمة قوية في البصائر تحت عنوان (أرحام تتعاطف) جاء فيها:(طالما نعينا على المسلمين خصوصاً، وعلى الشرقيين عموما، هذا التقاطع الذي شتت شملهم، وفرّق جامعتهم، وصيّرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة، وضربنا لهم الأمثال، وسُقنا المثُلات، وجَلوْنا العبر؛ وكانت نُذُر الشر تتوالى، فيتمارَوْن بها، وصيحاتُ الضحايا منهم تتعالى،

فيصِمُّون عنها؛ والزمن سائر، والفلك دائر؛ وهم في غفلة ساهون.دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزيل، وهي جامعة الإسلام؛ إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل، وهي روحانية الشرق؛ وحذّرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة، التي هي منبع شقائهم، ومبعث بلائهم، وبيَّنا لهم أنها دسيسة استعمارية، زيّنها لهم سماسرة الغرب، وعلماؤه وأدّلاؤه؛ وغايتُهم منها التفريق، ثم التمزيق، ثم القضم، ثم الهضم، وأن الاستعمار — بهذه الدسيسة وأشباهها — يُفسد فطرة الله فيهم، وينقُض دين الله عندهم؛ ففطرة الله تُلهِم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره؛ ودين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه؛ وهو بهذا يعمِّم التناصر، ويقيم في الأرض شرعة التعاون، فما من جار إلا له جار والناس كلهم متجاورون، جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية، فجوار المدينة للمدينة، فجوار الوطن للوطن؛ فإذا أخذوا بهذه الشرعة وأقاموا حدودها عمّ التناصر والتعاون، وسدّت المنافذ على المتغيرين، وعلى المفسدين في الأرض) [9] .

ثانيا: داؤنا الانقسام ودواؤنا الوحدة:

يذكر الشيخ الإبراهيمي في خطابه الذي ألقاه في باريس أمام الوفود العربية الإسلامية في الأمم المتحدة هذه الكلمات القوية المزلزلة والمعبرة عن داء الفرقة ودواء الوحدة بقلمه البليغ المبدع: أيها الإخوان: «إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا هي أنهم أرادونا على الانقسام، وزينوه لنا كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم وأعمالهم وآرائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكاتب والراهب والمرأة والتاجر والسمسار حتى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعا ودولا وممالك، كما توزع قطعة الأرض الكبيرة الصالحة، إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي، ثم عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم، واستخرجوها بعقولهم المدبِّرة، وأيدينا المسخَّرة، فكان لهم منها حظ العقل، ولنا منها حظ اليد، ولو أننا تعاسرنا عليهم من أول يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها لما نالوا منها نيلا، ولما وصلنا إلى هذه الحالة. أما وقد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون، وأصبحنا في درجة من الضعف المادي والضعف العقلي نعتقد فيها أن الله خلقنا خلقة الأرنب، وخلقهم خلقة الأسد، وجف القلم، ولا تبديل لخلق الله فأول واجب علينا، بل

أول نقطة يجب أن نبتدئ منها السير، هي أن نُكَفِّر بهذا الانقسام، ونُكَفِّر عليه بضده، وهو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، وكيف يكون ذلك وقد بنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة، وممالك وملوك وحدود، وإن تغيير الممالك لصعب، وإن فطام الملوك عن لذة الملك لأصعب منه ؟ فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، ولنعتصم بالأمر الميسور، وهو أن نوحّد التعليم ومناهجه، والتجارة وأوضاعها، ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يدا واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منا معتديا على جميع الأجزاء، وعدو العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم ما فعلته ايطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتديا اعتدى على جزء من انكلترا (وهي كجزيرة العرب) تداعى الانكليز من أطراف الأرض لاسترجاعه، فلم لا نكون كذلك؟.

إنهم إن علموا ذلك منا، وعلموا جدنا فيه تابوا عن سيرتهم فينا وأقلعوا، أمّا من لان للأكل فليس من حقه أن يلوم الأَكَلَة. والذي روحي بيده... ما يسرني أن للعرب ثماني دول، ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنما يسرّني ويثلج صدري؛ أن يكون المسلمون كلهم شعبا واحدا بحكومة واحدة، وعلى عقيدة في الحياة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وجد هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوما جبارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع». [10]

قال هذا الشيخ قبل أكثر من نصف قرن (سنة **1952**م) فكيف لو عاش إلى عصرنا، ورأى ما فيه من تكتلات واتحادات مثل الاتحاد الأوروبي؟!. الذي أمسى حقيقة واقعة، بعد حروب بين الأوربيين بعضهم وبعض استمرت قرونا، آخرها الحربان العالميتان، اللتان سقط فيهما من القتلى والضحايا بالملايين.

المحور الثالث: التوعية والتربية، طريقا ومنهاجا:

اعتمد الشيخ الإبراهيمي في منهجه الإصلاحي على ركيزتين أساسيتين؛ هما: التوعية والتربية. وهما في الواقع ركيزتا جمعية العلماء، فما كان للشيخ أن يحيد عنهما. وهو الأمين على مسيرة الجمعية والمضِي بها قُدُما في طريقها الذي رسمته من أول يوم.أما التوعية، فهي لجماهير الشعب، الذي هو هدف الإصلاح

ووسيلته معا، وأما التربية، فهي للطلائع التي ينتظر منها أن تقود معركة التحرير، ومعركة البناء والتقدم فيما بعد.

أولا: التوعية:

كانت التوعية في نظر الشيخ –كما هي في نظر جمعية الإصلاح منذ نشأت– تقوم على فهم الدين فهما صحيحا، بحيث تنشئ مسلما سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم السلوك، عزيز النفس، قوي الجسم، حر الإرادة، مستنير العقل، محبا للخير، غيورا على أهله ووطنه ودينه، عالما بمن هو صديقه ومن هو عدوه، وكان إنشاء هذا الجيل هو قُرّة عين الشيخ وإخوانه، وكان هو معقد الأمل في تحقيق النصر المنشود على الاستعمار الفرنسي، وما خلّفه من آثار في الأنفس والعقول والحياة، وكان الاستعمار الفرنسي اللعين يعرف تمام المعرفة: أن هذا الجيل هو الخطر الحقيقي على وجوده وبقائه في الجزائر، ولذا كان له بالمرصاد، وكان يعوق طريقه بكل ما يمكنه، ولكنّ الإبراهيمي كان ماضيا في سبيله، مستعينا بربّه، مشدود الأزر بإخوانه من العلماء، وبشعبه الجزائري الأبيّ. وكانت جولات الشيخ في طول البلاد وعرضها، ودروسه وخطبه ومحاضراته، وأحاديثه الخاصة والعامة، ومقالاته في (البصائر): كلها تدور حول إيقاظ الوعي الدّيني الحقيقيّ، وتنقية الفكر الإسلاميّ من الخرافات والأباطيل والبدع، التي شوّهت وجه الدين الجميل، وأضافت إليه من الزوائد والشوائب ما كدّر صفاءه، ولوّث نقاءه، ومن المحدثات ما عسّر الدين الذي أراد الله به اليُسر ولم يرد به العُسر، وما جعل فيه من حرج، وكل عمل في هذا السبيل يهدم لبنة من لبنات الاستعمار المخرِّب، ويضع لبنة في بنيان الجزائر العربية المسلمة، جزائر الغد، ويغرس الآمال في أنفس الجزائريين؛ بقدر ما يغرس المخافي قلوب الفرنسيين، معتمدا في ذلك خطة محكمة الإعداد، واضحة الأهداف، خالصة من الزوائد والشبهات:

أولا: التذكير بأشنع أعمال فرنسا في الجزائر:

يتحدث العلامة الإبراهيمي عن التخريب الهائل الذي مارسته فرنسا في الجزائر منذ احتلالها، فيقول [11]: «كانت الجزائر قبل احتلال الفرنسيين لها في سنة **1830**م دولة مستقلة غنية، تملك خصائص الدولة في ذلك العصر، وأهمها العلم بالدين والدنيا، وفيها من الأوقاف الإسلامية الدارّة على العلم والدين ووجوه البر ما لا يوجد مثله في قُطْر إسلامي آخر، ومنذ تغلّب عليها الاستعمار الفريد في

الخبث، وهو يعمل جاهدا على قتل شخصيتها بالقضاء على الدّين واللغة العربية، وكان أول عمل قام به هو مصادرة الأوقاف الإسلامية والمعاهد التّابعة لها من مساجد ومدارس وزوايا، وتحويلها إلى كنائس وثكنات واصطبلات وميادين ومرافق عامة، ثم أصدرت قانونا لا نعرف له نظيرا في تاريخ البشرية العاقلة يقضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في وطنها وبين أهلها، يتوقف تعليمها على إذن خاص وشروط ثقيلة، وزادت تلك الشروط على الأيام ثقلا وعنتا، حتى أصبحت في السنوات الأخيرة لا تطاق، وأصبح معلّم العربية يقف في قفص الاتهام مع اللصوص والسافكين، وتجري عليه العقوبات مثلهم بالسجن والتغريم والتعذيب، ثم دأب الاستعمار (من مائة ونيف وعشرين سنة) على طمس كل أثر للإسلام والعربية، وقطع كل صلة بينهما وبين الشرق، ليتم له مسخ الأمة الجزائرية، وإدماجها في الأمة الفرنسية، ولكن المناعة الطبيعية في هذه الأمة، وتصلبها في المحافظة على التراث الإسلامي المقدّس، وعلى خصائصها الشريفة: دفع عنها ذلك البلاء، وأنقذها من ذلك المصير».

ثانيا: توعية الشعب وتنويره:

ويشرح الشيخ ما تقوم به جمعية العلماء من تنوير وتوعية للشعب الجزائري، وتحرير عقله ووجدانه وإرادته من الأوهام والضلالات، وشغله بمعالي الأمور عن سفاسفها، ووصله بالحق بدلا من ركضه وراء الباطل، عن طريق المساجد والأندية وغيرها. فيتحدث عن مبدأ جمعية العلماء وغايتها فيقول:

غاية جمعية العلماء تحرير الشعب الجزائري:

مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة، فالمبدأ هو العلم، والغاية هي تحرير الشّعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل للثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدّنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذرا أو متعسرا، حتى إذا تم منه شيء اليوم، ضاع غدا، لأنه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يرجى منه عمل. لذلك بدأت جمعية العلماء– من أول يوم نشأتها– بتحرير العقول والأرواح، تمهيدا للتحرير النهائي، فوضعت برنامجا محكما، لوعظ الكبار وإرشادهم بالدروس والمحاضرات، حتى بلغت من ذلك أقصى غاية من الجهد وأقصى غاية من النتائج، وأصبح الشعب —في

جملته– صافي الفكر، مستقل العقل، متوهج الشعور، مشرق الروح، فاهما للحياة، واسع الأمل فيها، عاملا للحرية والاستقلال، مؤمنا بماضيه، عاملا على ربط الحاضر بالماضي، ووصله بالوطن العربي الأكبر، متبصرا في وزن رجاله، لا ينطلي عليه غش الغشاشين ولا تدجيل الدجالين. ومعلوم أن هذه المعاني لا تدخل النفوس دفعة واحدة، وإنما تكمل بالتدرج، والذي وصل إليه الشعب الجزائري من هذا هو نتيجة نيف وعشرين سنة من أعمال جدية متواصلة، ولكنه لا يتم عادة في أقل من خمسين سنة.

ثالثا: أعمال جمعية العلماء في التعليم العربي والتوعية:

ويعدّد الشيخ ما قامت به جمعية العلماء من أعمال مجيدة للشعب، فيقول:

أولا: زادت الجمعية على هذا العمل العام عملا آخر خاصا، وهو العمل على تخريج جيل جديد، يتلقى هذه المعاني في الصغر، ويثبتها بالعلم الصحيح، لتحارب الاستعمار بسلاح من نوع سلاحه وهو العلم، فأسست في هذين العقدين من السنين نحو مائة وخمسين من المدارس الابتدائية للعربية والدين، وشيدتها بمال الأمة، وصيرتها ملكا للأمة، وهي تضم اليوم ما يقرب من خمسين ألف تلميذ، من حملة الشهادات الابتدائية من مدارس الجمعية. (وسنتحدث بتفصيل عن هذا الأمر عند حديثنا عن عنصر التربية).

ثانيا: بما أن المساجد التي هي تراث الأجداد، صادرتها الحكومة الفرنسية وصادرت أوقافها من يوم الاحتلال، فأحالت بعضها كنائس وبعضها مرافق عامة، وهدمت كثيرا منها لتوسيع الشوارع والحدائق، واحتفظت بالباقي لتتخذ منه حبالة تجر أشباه الموظفين الدينيين، وما زالت إلى الآن هي التي تعين الأئمة والخطباء والمؤذنين والقومة، ولكنها تستخدمهم في الجاسوسية والمخابرات، وتجري عليهم المرتبات من الخزينة العامة، لذلك التفتت الجمعية إلى هذه الناحية الحيوية وشيدت بمال الأمة نحو سبعين مسجدا في أنحاء القطر، لأداء الشعائر وإلقاء الدروس الدينية، والحكومة الفرنسية تنظر إلى هذه المساجد نظرتها إلى الحصون المسلحة.

ثالثا: في الجزائر مئات الآلاف من الشبان العرب المسلمين، فاتهم التعليم الديني والعربي، ولا تلقاهم الجمعية في المدارس ولا في المساجد، والاعتناء بهم واجب، فأنشأت لهم الجمعية عشرات من النوادي المنظمة الجذابة، تلقي عليهم فيها

المحاضرات العلمية والدينية، والاجتماعية، وأدّت هذه النوادي أكثر مما تؤديه المدارس والمساجد من التربية والتوجيه.

رابعا: أنشأت الجمعية للعمال الجزائريين في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات من النوادي وزوّدتها بطائفة من الوعاظ والمعلمين من رجالها، يتعلم فيها أولئك العملة ضروريات دينهم ودنياهم، ويتعلم فيها أبناؤهم اللغة العربية تكلما وكتابة، ويتربون على الدين والوطنية، وقد استفحل أمر هذه النوادي وأتت ثمراتها قبل الحرب الأخيرة، ثم قضت عليها الحرب، ثم حاولت الجمعية تجديدها بعد الحرب، غير أن التكاليف المالية تضاعف واحدها إلى الآلاف، فكان ذلك وحده سببا للعجز.

خامسا: أنقذت الجمعية عشرات الآلاف من أبناء الجزائر من الأمية، بوسائل دبرتها ونجحت فيها نجاحا عجيبا، وأن هذا العمل من غرر أعمالها لأن الأمية تشل الشعوب. أ. هـ [12]

رابعا : الميدان الداخلي أولى بالاهتمام:

كان أمام الشيخ البشير – ومن قبله الشيخ ابن باديس– ميدانان للكفاح: ميدان الاستعمار الخارجي، وميدان الاستعمار الداخلي... استعمار العقول والنفوس والضمائر بالأوهام والضلالات والبدع، فاختار الشيخان البدء بالميدان الداخلي، فهو أحق وأولى بالاهتمام.

وعلل ذلك الشيخ الإبراهيمي، فقال: «كانت الحكمة لاختيارنا الميدان الأول للهجوم، أن موضوع النزاع ديني، ونحن علماء دين يعترف لنا بالإمامة العلمية حتى الاستعمار وأعوانه، ولا يستطيع الاستعمار أن ينتصر لأوليائه في نزاع ديني انتصارا سافرا، وإنما ينتصر لهم بوسائل أخرى لا تؤثر في هدفنا الذي نرمي إليه، وهو انتزاع الأمة من هؤلاء المستغلين لها باسم الدين، وإنقاذها من جبروتهم، وأننا إذا حررناهم من سلطانهم الوهمي، كانت معنا على الاستعمار الخارجي الحقيقي، ومن لم يكن الشعب معه كان مخذولا في كل ميدان.

بدأنا هذه الحركة بجنب حركة التعليم الديني العربي، وأطلقنا عليها اسمها الحقيقي، وهو: (الإصلاح الديني) وهو اسم يهيج أصحاب البدع والضلالات من المسلمين في الدرجة الأولى، ويهيج الاستعمار الخارجي في الدرجة الثانية، فكان من تفاوت التهيج فسحة، سرنا فيها خطوات إلى النجاح، وكانت أعمالنا

تسير في دائرة ضيقة، لأن الاستعداد لظهور جمعية العلماء لم يتم إذ ذلك، وكان مبدأ (العمليات) بدروس دينية ومحاضرات».

ورأى المرحوم عبد الحميد بن باديس: أنه لا بد من جريدة تظاهر الفكرة وتخدمها، فأنشأ جريدة (المنتقد) وهي أول جريدة إصلاحية بالشمال الإفريقي، فكانت أرفع صوت وأفعل وسيلة لنشر الإصلاح الديني، فارتاع لها الاستعمار الفرنسي وعطلها في مدة قريبة بما يملك من قوانين، فأصدر المرحوم جريدة أخرى باسم (الشهاب) كانت أسد رماية، وأوسع خطى من سابقتها، وسكت عنها الاستعمار فنقلها صاحبها من جريدة إلى مجلة، طال عمرها بضع عشرة سنة ورافقت سنوات الإرهاص بجمعية العلماء، فسجلت خطوات الحركة، وكانت لها مواقف رائعة في عدة ميادين، فخدمت العلم والدين والسياسة، وتردد صداها في المغارب الثلاثة، فتركت في كل قطر أثرا حميدا في النفوس، وفضحت الاستعمار الفرنسي فضائح لا ينسى خزيها، وبدروس الأستاذ عبد الحميد بن باديس، ومجلته الشهاب، استحق لقب (باني النهضة الجزائرية بجميع فروعها)، وأنشأ بعض الإخوان جريدة سماها (الإصلاح) كانت لها جولات في حرب البدع ولكنها لم تعمر إلا قليلا.

تساوقت الآثار المختلفة إلى غرض واحد، آثار دروس الإسلام الحية من ابن باديس، في نفوس تلاميذه، وقد أصبحوا آلافا، وآثار دروسه العامة في التفسير والأخلاق والاجتماع، وقد أصبح سامعوها المتأثرون بها عشرات الآلاف، وأكثرهم من العامة، وآثار الحرب في الأمة كلها، وآثار العلماء المصلحين بعد أن تكاثر عددهم وتلاحق مددهم، وعاونوا على تنوير الأفكار وتوجيه الأذهان لفهم حقائق الدين والدنيا، وهداية النفوس الضالة بإرشاد القرآن وسيرة محمد وأصحابه، وتجلية التاريخ الإسلامي.

وتألف في ذلك كله حداء قوي مطرب، سارت عليه الأمة الجزائرية عقدا من السنين، من سنة **1920**م إلى سنة **1930**م، واستوى في التأثر الموافق منها والمخالف، وأوائل نهضات الأمم تفتقر دائما إلى المخض العنيف بالكلام والرأي والجدال والوفاق والخلاف، وذلك المخض هو الذي ينشئ فيها الحياة ثم يصفيها، وهو دليل حياة الشعور فيها[13]

ثانيا: التربية:

لقد كانت رسالة الشيخ البشير رسالة إيمان وعلم وتحرير للشعب الجزائري المسلم العربي. وكان رحمه الله قد كرس حياته من أجل نشر الوعي الإسلامي والعلم بين أبناء الجزائر وكانت جمعية العلماء التي كان عضوا بارزا فيها قد أنشأت مئات المدارس الإسلامية في الجزائر وقامت بإرسال البعثات العلمية إلى المشرق العربي لينالوا قسطا من الثقافة العربية الإسلامية.

والتربية في نظر المربين هي جهد إنساني هادف، يوجه لرعاية الفرد والمجتمع، ويسعى لبناء الفكر وتثقيف العقل وتقويم السلوك، وتقوية البدن وتنمية المواهب، من أجل تحقيق الغاية التي يتطلع إليها الإنسان في حياته، وهي بلوغ الكمال الإنساني، أي بناء الشخصية السوية، والتربية من منظور الإمام الإبراهيمي لا تخرج عن هذه المعاني، فهو ينظر إلى الجهود التي يبذلها العلماء والمعلمون والمسئولون عن رعاية أفراد المجتمع في مجال التعليم والتوجيه نظرة ترتبط أساسا بما يريده المجتمع من وراء هذه الجهود، وهو إعداد الأفراد للحياة الحاضرة والحياة المستقبلية، من خلال الدعوة إلى بناء عقولهم ونفوسهم وتنمية مواهبهم الفطرية وتنشئتهم على صحة الإدراك ودقة الملاحظة.[14]

أو ليس الشيخ ظل الأب والمربّي لجيل بأسره دون أن ينازعه في هذه الأبوية أحد؟ ولا نحسب أن هذه الأبوية كانت قائمة في نفسه، وجاثمة في جوانحه، لأنها عنصر طبيعي يشكل جزءا من كيانه الروحي. ذلك بأن الشيخ كان يحب جيل المعلمين الأحرار الذين ينشرون اللغة العربية ويناضلون من أجل تعليمها للنشء الصاعد[15].

وكانت التربية في نظر الشيخ — وفي نظر الجمعية– هي الوسيلة المثْلى لغرس التعاليم الإسلامية التجديدية – ومعها النزعة العروبية والوطنية– في عقول الناشئة وفي قلوبهم. ومقاومة تيار (الفرنسة) الذي يعمل منذ احتل الجزائر على أن يجردها من هويتها الإسلامية والعربية. وذلك بفرض الفرنسية لغة وحيدة في التعليم، وإبعاد العربية تماما عن هذا المجال. وحذف الدين الإسلامي من مجال التربية والتعليم حذفا تاما، باعتبار أن الدولة (علمانية) (لائكية) وأنها لا تعلم الدين في مدارسها.

فكان المطلوب هنا عملا مضادا لما يهدف إليه المستعمر، تقوم التربية فيه على أساس أن الدين هو الأساس. والعربية هي اللسان.

«فإذا كان التعليم الفرنسي السائد يقصد إلى فرنسة الجزائريين، فإن التعليم الذي قاده من قبل ابن باديس، وقاده من بعده الإبراهيمي، يقصد إلى إعادة (أسلمة) الجزائريين و(تعريبهم) أو إلى إبقاء الإسلام والعروبة عند من بقيا عنده، وكان شعار جمعية العلماء منذ البداية: الإسلام ديننا.. العربية لغتنا.. الجزائر وطننا!!ولذا كان تركيزهم المستمر والدؤوب على ضرورة (التعليم العربي) الذي يجب أن تتاح له فرصة بجوار (التعليم الفرنسي) السائد والمهيمن على الساحة كلها».

وكانت مناهج هذا التعليم وكتبه ولغته ومعلموه وإدارته والجو المدرسي العام، كلها تصب في هذا الاتجاه، حتى الأناشيد التي تحفظ للطلاب تغرس فيهم هذه المعاني، وتنمي فيهم هذه المشاعر، مثل النشيد المعروف الذي ألفه الإمام ابن باديس نفسه، ويحفظه الجميع:

شعب الجزائر مسلـم وإلى العروبـة ينتسـبْ
من قال حاد عن أصله أو قال: مات، فقد كذبْ

ومن حسن حظ الجزائر: أن الله تعالى وهبها رجلا مربّيا من الطراز الأول، ومنحه من المواهب والملكات ما قاد به كتيبة التربية على بصيرة ووعي بالهدف المنشود، والمنهج المقصود، وأعد له من الرجال الكفاءة من يذلل بهم الصعاب، ويتخطى بهم العقاب. إنه الإمام ابن باديس الذي كان هدية الله إلى الجزائر، كما يتحدث عنه الإبراهيمي.

ومن أراد أن يعرف أثر التربية والتعليم الذي قامت به جمعية العلماء، وبدأها الإمام ابن باديس، فليقرأ ما كتبه الإمام الإبراهيمي في البصائر، ونشر الكثير منه في (آثاره) التي نشرت بعد وفاته، وإن لم تستوعب كل ما خطه قلمه.

يقول الإبراهيمي في إحدى مقالاته أو دراساته عن جمعية العلماء ومؤسسها: «وعبد الحميد بن باديس باني النهضة وإمامها ومدرب جيوشها: عالم ديني، ولكنه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرّق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللماح، والفهم الغواص على دقائق القرآن وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين ومناشئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العلميات والعمليات، من فقه الإسلام وأطوار تاريخه، والإلمام الكافي بمعارف العصر، مع التمييز بين ضارها ونافعها، مع أنه لا يحسن لغة من لغاتها غير العربية، وكان

التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها. إماما في العلوم الاجتماعية، يكمل ذلك كله: قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتابها.

وهو من بيت عريق في المجد والملك والعلم، يتصل نسبه الثابت المحقق بالمعز بن باديس، مؤسس الدولة الباديسية الصنهاجية، إلى صنهاجة القبيلة البربرية العظيمة التي حدثناكم عن دولها وأثارها بالجزائر، والمعز بن باديس هو جذم الدولة التي كانت بالقيروان، ويزعم بعض النسّابين أنها يمنية وقعت إلى شمال إفريقيا في إحدى الموجات التي رمى بها الشرق الغرب من طريق برزخ السويس في الأولين، كما رماه بالموجة الهلالية في الآخرين.

هذا الرجل النابغة يشهد التاريخ أنه واضع أساس النهضة الفكرية في الجزائر، وقد سلك لها المسلك العلمي الحكيم، وهو مسلك التربية والتعليم، وأعانه على ذلك استعداده الفكري وكمال أدواته، فتصدر للتعليم حوالي سنة **1914**م ببلدة قسطنطينة التي هي مستقر أسرته من المائة السابعة للهجرة، وعمره إذ ذاك دون الخامسة والعشرين، فجمع عليه عشرات من الشبان المستعدين فعلمهم ورباهم وطبعهم على قالبه ونفخ فيهم من روحه، وبيانه، تطوعا واحتسابا، لا يرجو إلا جزاء ربه ولا يقصد غير نفع وطنه.

وكان — رحمه الله– يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، ويدربهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام، فما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تخرّج على يده وعلى طريقته جيل من الشبان، تتفاوت حظوظهم من العلم النظري، ولكنهم طراز واحد في العمل، وصحة التفكير، والانقطاع للجهاد.

وكان من طريقته في التربية: أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وصقل العقل، وترقية الروح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة، وأنه يستخرج من قواعد العلوم التعليمية قواعد للاجتماع، وينتزع منها دروسا في التربية والأخلاق.

وهكذا كان الأمر، فإنه أخرج للأمة الجزائرية في الزمن اليسير جيلا يفهم الحياة، ويطلبها عزيزة شريفة، ويتدرع إليها بالأخلاق المتينة، وقد كان يدربهم على الأعمال النافعة، كما يدرب القائد المخلص جنوده، ويعدهم لفتح مصرٍ، أو لقاء مصرع، ولتلامذته إلى اليوم سمات بارزة في إتقان الدعوة الإصلاحية، التي أعلنتها جمعية العلماء في حياته، وفي صدق الاتجاه، وفي إتقان صناعة التعليم على

طريقته. وهم الرعيل الأول في الثورة الفكرية الجارفة، التي نقلت الجزائر من حال إلى حال.

وقد كان تعليمه والآفاق التي فتحها ذهنه الجبار، وأسلوبه في الدروس والمحاضرات، كل ذلك كان ثورة على الأوضاع التعليمية المعروفة في بدلنا، حيث ابتدأ التعلم، وتوسط فيها، وفي جامع الزيتونة حيث

انتهى، ولم يكن علمه نتيجة دراسته التقليدية في البلدين، المحدودة بسنوات معدودة، وكتب مقروءة، على نحو ما في الأزهر، وإنما كان علمه نتيجة استعداد قوي، وذكاء خارق، وفهم دقيق، وذهن صيود لشوارد المعاني، غواص إلى نهاياتها، كما وصفناه في أول الحديث».أ. هـ[16].

وبعـد الشيخ ابن باديس: قاد الإبراهيمي سفينة التربية والتعليم، فكان يعلـم بنفسه أحيانا، ويوجـه المعلمين، ويؤلف في التربية، حتى أنه صنف كتابا باسم(مرشد المعلمين) قدمه أحد أبناء الجمعية(الأستاذ محمد الغسيري) فقال: «وضع أستاذنا الجليل محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء منذ سنوات، برنامجا حافلا للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمّنه أصولا عظيمة من علم التربية، وقد سألناه منذ عامين: أن يجرد لنا فصولا عملية تتعلق بالسنوات الست الابتدائية ففعل، وسلّمه لنا لنطبعه وننتفع به، وطالعناه فلم نجده كالبرامج المعتادة، وإنما هو (معلم مكتوب). فهو يأخذ بيد المعلم ويسير به خطوة بخطوة إلى الغاية لا يضل عنها ولا يجوز، وكأنما هو (ملقن) من وراء المعلم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل. لذلك آثر جماعة من قدماء المعلمين تسميته(مرشد المعلمين)» [17].

المحور الرابع: العمل الجماعي ضرورة وشرطاً

وإذا كان الشيخ الإبراهيمي يؤمن بالتوعية والتربية منهاجا للإصلاح، ولا يكتفي بمجرد الخطب الرنانة، والكلمات المسجوعة، أو الدعايات الحزبية، فإنه يؤمن كذلك، كما آمن شيخه ورفيقه وأسوته الإمام ابن باديس (بالعمل الجماعي) ضرورة وشرطاً للنجاح وتحقيق الرجاء.

فالعمل الفردي . مهما يصحبه من الإتقان والإخلاص محدود الأثر، محصور القدرة، مقيد الإمكانات، ولكن إذا تضامّت الجهود، وتلاحمت القوى، أصبحت اللبنات المتفرقة بنيانا مرصوصا، يشد بعضه بعضا.

فالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته، ويد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وقد قال الله تعالى لموسى: ﴿ **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** ﴾ [القصص:**35**].

وفكرة الإمام ابن باديس ورفقائه هنا، هي نفس فكرة الإمام حسن البنا وإخوانه في مصر، حيث لم يكتف بالوعظ والإرشاد طريقا للإصلاح، ولكنه رأى أن العمل الجماعي المنظم ضرورة لابد منها لنصرة الإسلام وإحيائه وتجديد أثره في الأمة، ولتحرير مصر وبلاد العرب والمسلمين من الاستعمار وكل سلطان أجنبي لإقامة دولة الإسلام فيها.

توافق الإمامان على غير التقاء بينهما، وأنشأ حسن البنا جمعية الإخوان المسلمين، سنة **1928** أو **1929م** وأسس ابن باديس جمعية العلماء سنة **1931م**.

وإن كنت قرأت مقالة العلامة الإبراهيمي: أن فكرة الشيخ ابن باديس في إنشاء الجمعية، كانت أسبق من ذلك، فقد حاول أن ينشئ جمعية أطلق عليها: جمعية (الإخاء العلمي) سنة **1924م** ولكن حالت الحوائل دون ذلك.

أسس ابن باديس جمعية العلماء للنهضة والإصلاح والتحرير، وكان نائبه ورفيق دربه البشير الإبراهيمي. وبعد وفاته كان أمينا على العمل الذي بدآه معا، وفيّا له، حريصا على أن يستمر في إيتاء أُكُله، وتحقيق أهدافه الكبيرة. كما كان حريصا أبلغ الحرص على أن يعطي كل ذي حق حقه، فيتحدث عن ابن باديس أنه: هو المؤسس والباني والبادئ، وأول من بذر بذور الإصلاح والتجديد، وأول من ارتفعت صحيفته بتحرير الجزائر ونهوضها وبنيانها من جديد. بل أول داعية إلى التجديد والإصلاح في المغرب العربي كله.

من آثار العمل الجماعي:

والعمل الجماعي أقدر على إنجاز المشروعات الكبيرة، وتحقيق الآمال الطموحة، مما لا يستطيع الأفراد – وإن بلغوا ما بلغوا – أن يحققوه. وها هو الإبراهيمي يعدد لنا في مقال له: ما قامت به (جمعية العلماء) من أعمال أصيلة ومنجزات جليلة ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ [الأعراف:**58**].

(مائة وثلاثون مدرسة عربية مجهزة بكل الأسباب المادية العصرية اللازمة للمدارس، وبجهاز آخر من المعنويات أعظم منها شأنا وأجل خطرا، وبجند من المعلمين الأكفاء قوامه: مائتان وخمسون معلما، من بينهم عشرات النوابغ في

التعليم والإدارة، ومشحونة بزهاء ثلاثين ألف تلميذ من أبناء الأمة بنين وبنات، يتلقون مبادئ الدين الصحيح: عقيدة وأعمالا، ومبادئ العربية الفصيحة: نطقا وكتابة وإنشاء، ويتربون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية الإسلامية والآداب العربية، ويتكوّن منهم جيل مسلّح بالعلم، ثابت العقيدة في دينه ووطنه، قوي العزيمة في العمل لهما، ويزيد في قيمة هذه الحصون العلمية أن الأمة تملك أعيان نحو الخمسين منها، وتملك الانتفاع بالباقي على وجه الكراء. وسبعة وثلاثون مدرسة أخرى شرعت الأمة الإسلامية في تشييدها في هذه السنة، وفيها ما يحتوي على ستة عشر قسما، وفيها ما تقدر نفقاته بخمسة عشر مليونا من الفرنكات، ومعهد تجهيزي عظيم، يخطو إلى الرقي والكمال في كل يوم في نظامه وبرامجه وأساتذته وتلامذته. يؤوي من تخرجه تلك المدارس، ليزود الأمة منهم بالوعاظ والمرشدين وخطباء المنابر، ويزود الطامحين منهم إلى المزيد من العلم بالمؤهلات إلى ما يطمحون إليه، وجمعيات بلغت المئات، مقسمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبث في الأمة: النظام، والإدارة، وآداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب، وتعلمها كيف تناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تحاسب العاملين. وتدربها على التدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى. لأن الأمة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة، لا تحسن بالطبع – إدارة مجلس فضلا عن حكومة، ولا كالجمعيات مدارس تدريب، ونماذج تجريب، ونواد بلغت العشرات، غايتها إصلاح ما أفسدت المقاهي والملاهي من أخلاق الشباب، وكلها ميادين للعمل، ومنابر للخطابة، ومستغلات للعلم والتعليم.

وآلاف من الشباب العربي المسلم كان كالمجهول في نسبه، وكالجاهل لحسبه، ففتحت المحاضرات الحية أذهانه على تاريخ أسلافه وفتقت ألسنته على آدابهم، فتقاسم على أن يقفو الأثر، ويجدد ما اندثر، وأقبل على العلم حتى إذا ضاقت به الجزائر فارقها كالنحلة، ترحل إلى المكان السحيق، لترجع إلى خليتها بالرحيق.

وإصلاح ديني تمكن من النفوس وتغلغل في الأفئدة، فطهرها من الشوائب التي شابت الدين، ومن النقائص التي شانت الدنيا، وصحح العقائد فصحت القواعد، وصحح العزائم، فأقدمت على العظائم، وإذا صحت العقائد وصلحت النيات، ظهرت الآثار في العزائم والإرادات. وفضائل شرقية كانت مشرفة على التلاشي فأحيتها مدارسة القرآن وممارسة التاريخ، وإفشاء الآداب العربية، ونشر المآثر العربية.

وأمة كاملة كانت نهبا مقسما بين استعمارين متعاونين على إبادتها: مادي متسلط على الأبدان، وروحاني متسلط على العقول، فصححت حركة الإصلاح الديني عقولها فصح تفكيرها، واتزن تقديرها، واستقام اتجاهها للحياة. وإن تحرير العقول من الأوهام، سبيل ممهد إلى تحرير الأبدان من الاستعباد.

هذا هو رأس المال الضخم الذي أثلته جمعية العلماء للأمة الجزائرية في بضع سنين، وغدت به البقايا المدخرة من ميراث الأسلاف، «وهذه هي الأعمال التي عملتها جمعية العلماء للعروبة والإسلام، فحفظت لهما وطنا أشرف على الضياع، وأمة أحاطت بها عوامل المسخ، فأصبحت أمة عربية مسلمة شرقية نضاهي بها أخواتها في العروبة والإسلام، بل نباهيهن بها.

وما شيدت جمعية العلماء هذا البناء الشامخ من الماديات والمعنويات ورفعت سمكه إلا بعد أن أزالت أنقاضا من الباطل والضلال تنوء بالعصب أولي القوة والأيد، وبعد أن نازلت جيوشا من المبطلين المضللين تكع عن لقائها الأبطال، وبعد أن لقيت من حماة الاستعماريين ما تلقاه فئة الحق من فئات الباطل: كانوا أكثر وأوفر، وكنا أثبت وأصبر، وكانت العاقبة للصابرين»[18].

خـــــاتـمة

إن الذي يقتفي آثار العلامة محمد البشير الإبراهيمي يقف على حقائق علمية رائعة، نفحات دعوية عميقة، ومنطلقات رسالية متينة، وأهداف وغايات من الإصلاح والتربية وجعلت من فكره الإصلاحي والتربوي معلما يهتدى به من التابعين من المصلحين والدعاة ورجال التربية.

الهوامش والإحالات

1 - جريدة البصائر، العدد **13** السنة الأولى من السلسلة الثانية **1947م**.

2 - من بحث ضاف تحت عنوان : الرق في الإسلام . انظر : آثار محمد البشير الإبراهيمي (**4** / **356- 360**)

3- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (**407/21**) عن معاذ بن جبل ، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم : هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك ، لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه ص **.169**.

4- محيي الدين صابر ، محمد البشير الإبراهيمي والدعوة القومية ، مجلة الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر ، السنة الخامسة عشرة - العدد **87**، شعبان - رمضان **1405هـ**، مايو- يونيو **1985م**، ص **107**.

5 - محمد البشير الإبراهيمي ، في قلب المعركة ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، **2007**، ص**23**.

6 -انظر في ذلك مقالات : رمضان : لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية (**3/97**)، وحدة الصوم والإفطار (**3/169**)، وبيانات للأمة الإسلامية (**3/301**)، أكبر زلة تقترفها لجنة الأهلة (**3/307**)، وتعود إلى لجنة الأهلة (**3/313**)، هلال رمضان: معلومات وتنبيهات (**3/319**).

7 - من آثار البشير الإبراهيمي ج **3** ص**-337**.

8- نشرت في العدد **150** من جريدة البصائر سنة **1951**.

9 - البصائر العدد **183** / السنة الخامسة من السلسة الثانية / **18** فبراير **1952م**.

10 - نشرت في العدد **148** من جريدة البصائر سنة **1951م**.

11- في المذكرة التي قدمها مكتب جمعية العلماء في القاهرة إلى مجلس الجامعة العربية ، ونشرت في صحيفة (منبر الشرق) و(الدعوة) في أغسطس **1954م**. القاهرة.

12- نشرت في صحيفة (منبر الشرق) وصحيفة(الدعوة) أغسطس **1654م**.

13-انظر: آثار البشير الإبراهيمي (/**4 342** وما بعدها).

14- عبد القادر فضيل ، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، مجلة الوعي ، مجلة فكرية ثقافية تصدر عن دار الوعي ، الجزائر ، العدد **2**: ذو القعدة - ذو الحجة **1431** - نوفمبر **2010**، ص **41**.

15- عبد المالك مرتاض ، محمد البشير الإبراهيمي ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة ، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، **1984**، ص **13**.

16- انظر: آثار البشر الإبراهيمي (/**4 340** وما بعدها).

17- البصائر: العدد**67**/ السنة الثانية من السلسلة الثانية **19/ 2 / 1949م**.

18 - البصائر: العدد **46**– السنة الثانية من السلسة الثانية – **23** أوت **1948م**.